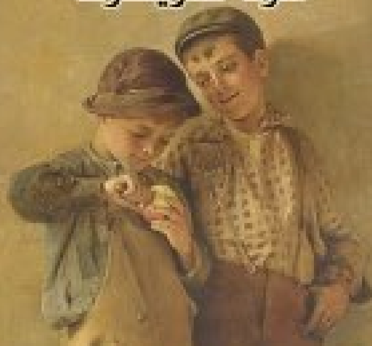
اغوتا كريستوف



أينك يا ماتياس؟

يليه: لين، الزمن

ترجمة: محمد ايت حنّا

منشورات الجمل

أغوتا كريستوف: **أينك يا ماتياس؟**

يليه: **لين، الزمن**

أغوتا كريستوف

أينك يا ماتياس؟

يليه:

لين، الزمن

ترجمة: محمّد آيت حنّا

منشورات الجمل

وُلدت **أغوتا كريستوف** سنة ١٩٣٥ بهنغاريا، وغادرتها في سنّ العشرين لاجئة إلى سويسرا، وهناك سلمت حياتها القروية البسيطة إلى قساوة حياة العمّال، مثلما سلّمت لغتها الأمّ إلى اللغة الفرنسية (اللغة العدوّ بتعبيرها). كتبت أغوتا كريستوف كلّ أعمالها الأساسية بالفرنسية على الرغم من أنّها لم تكن تعرف حرفاً من هذه اللغة حين وصلت إلى سويسرا، فتميّز متنها أساساً بطابعه المزدوج، إذ هي تكتب وفي الآن نفسه تقدم خطاطات تمارين للكتابة. يعكس كتابها **الدفتر الكبير** هذا الطابع المزدوج ويضيء في الآن نفسه شيئاً من حياتها التي فصّلتها في سيرتها المقتضبة «الأمية».

توفيت سنة ٢٠١١ في نيوشاتل بسويسرا، بعدما خلّفت متناً مهمّاً يتكوّن أساساً من روايات (**الدفتر الكبير - البرهان - الكذبة الثالثة - أمس**) والعديد من المسرحيات والتمثيليات الإذاعية.

محمد آيت حنّا. كاتب ومترجم مغربي مهتم بالفلسفة والأدب والجماليات. وُلد سنة ١٩٨١ بالرباط وبها أكمل مساره الدراسي. حصل على شهادة التبريز في الفلسفة. يدرِّس بالمركز الجهوي لمهن التربية والتكوين بالدار البيضاء. من مؤلفاته: **الرغبة والفلسفة، مدخل إلى قراءة دُلوز وغوتاري** (الدار البيضاء ٢٠١٠)؛ **عندما يطير الفلاسفة**، قصص (الدار البيضاء ٢٠٠٧). صدر له عن منشورات الجمل ترجمة كتاب كاظم جهاد: **حصّة الغريب، شعرية الترجمة وترجمة الشعر عند العرب** (٢٠١١) وترجمة رواية **الغريب** لألبير كامو (٢٠١٣).

أغوتا كريستوف: **أينك يا ماتياس؟** يليه: **لين، الزمن**، الطبعة الأولى

ترجمة: محمّد آيت حنّا

تلفون وفاكس: ٠٠٩٦١ ١ ٣٥٣٣٠٤

ص.ب: ١١٣/٥٤٣٨ ـ بيروت ـ لبنان

Agota Kristof: *OÙ ES-TU MATHIAS?*
suivi de *LINE, LE TEMPS*

Postfach 1127 . 71687 Freiberg a. N. - Germany
WebSite: www.al-kamel.de
E-Mail: alkamel.verlag@gmail.com

أينك يا ماتياس؟

كان ساندور يلعبُ بالصّندوق، لكنّ أحداً لم يأتِ.

حين وصل وقت اللُمجة[١]، فكّر في أنّ الأمر بلا فائدة. كانت الدّيوك تصيح في الباحة، لكنّها لم تكن تستطيع شيئاً إزاء الحلم العنيد، وكان ساندور محقاً: ما يزالُ الوقتُ مبكّراً. دائماً ما تصيح الديكةُ قبل الأوان.

بالخارج، خارجاً، لم يكن ثمّة شيء.

صيحاتٌ، نجومٌ، هذا كلّ ما في الأمر.

ثمّ إنّ كلّ ذلك كان شاحباً كصفعةٍ. أمسك ساندور خدَّه. لطالما رغب في أن يكون طفلاً ضحيّةً. لكنّه ليس كذلك. والدُه ما كان يضربه البتّة. كانت لديه مشاغلُ أخرى. كان ساندور يحسّ نفسه بلا هدفٍ. فجأةً، سئمَ صندوقَه. ودَّ لو يُصفع صفعةً. لكي يصرخ. لكي يصدر

(١) ما يُتعلّلُ به قبل الطّعام، ويشير إلى الوجبة «التصبيرة» التي تتناول بين الغذاء والمعشاء، وتسمّى في بعض اللّهجات عصرونة.

ضجيجاً. فصار إلى شتم والده، لكنّ والده لم يغضب، لم يستأ حتّى. لا يمكن أن يستاء المرء حين تكون لديه مشاغلُ أخرى.

بذل ساندور مجهوداً كي يستفيق. كان حلمُه مزعجاً. لم يكن حتّى كابوساً. حلمُه كان جزيرةً خلاءً. جزيرةً خاويةً على عروشها تماماً، حيث لا وجود لشيءٍ يمكن فعله.

رنّ منبّه.

جلس ساندور على سريره، وتثاءب.

ثمّ بغتةً تذكّر أنّ أمّه ماتت.

خرج إلى الباحة. رأى الديكة. الصندوق. كلّ ما كان يريد أن يراه هناك.

العشبُ، الطيرُ، الشّمس.

كان ذاك نهاره الأوّل في تلك المرابع المجهولة.

أحد الأولاد أتى يطلبه. ولم يرد ساندور أن يراه. لكن حين كلّمه الولد، اضطرّ ساندور إلى أن يرفع عينيه. مع أنّ الولد لم يقل إلا كلمة واحدة:

- تعال.

أخذساندور يحدّق فيه. كان الطّفل جميلاً. ابتسمَ له الطّفلُ:

- تجدني جميلاً، أليس كذلك؟ الجميع يجدونني جميلاً. لكنّ ذلك لا يهمّني. ما عاد الأمر يزعجني. ألفتُ هذا.

قال ساندور: - أحبّك.

أجابه الطّفلُ: - أعرف. لاحقاً، سأصير ابنكَ. لكن عليّ أن أموت أوّلاً.

قال ساندور: - واصل الكلام معي.

واصل الطّفلُ الكلامَ: - الأحبُّ إليّ هو أخي؛ أحبّه أكثر ممّا أحبُّ الآخرين مجتمعين، أكثر حتّى من نفسي.

سأله ساندور: - لِمَ؟

- لا أدري. ستراه، وستدرك بنفسك لِمَ أحبّه.

قال ساندور: - واصل الكلام معي.

قال الطّفل: - ينبغي أن تأتي لتأكل.

- لستُ جائعاً.

- إن لم تأكل، ستصير شاحباً ومريضاً، فيحزنُ الجميع.

سأله ساندور: أنت أيضاً ستحزن؟

- أنا، كلاّ. لا يمكن أن أحزن، لأنّ ثمّة دوماً شيئاً يسلّيني عن شيء.

قال سندور: - سأتناول طعامي قريباً. ربّما غداً، أو حتّى مساءَ اليوم.

أخذ الولد ينظر إليه بعينيه الرّماديّتين الواسعتين.

قال ساندور: - واصل الكلام معي.

- كلاّ، أنت من ينبغي أن تتكلّم. ليس لديّ ما أقولُه أنا. الحياةُ بالنّسبة إليّ جميلةٌ وبسيطة.

قال ساندور: - جميلة؟

قال الطّفلُ: - وبسيطة.

صاح ساندور وقد اعترته نوبةُ غضبٍ مفاجئة: - لكن، أتعرفُ ما الحياة؟ أفضّلُ أن تنصرفَ الآن!

قام الطّفلُ واقفاً: - هل تريدني حقاً أن أنصرف؟

- كلاّ، ابقَ، الأمرُ لا يغيّرُ شيئاً، في جميع الأحوال تأخّرَ الوقتُ.

قالساندور: - أُنظُر إلى تلك الشّجرة.

قال الطّفل: - إنّها ميتة. الأشجار الأخرى أيضاً تفقد أوراقها، لكنّ هذه قد ماتت.

قال ساندور: إنّها أمّي. لقد صارت الآن هكذا، تحت التّراب. عظامٌ عاريةٌ كأغصان هذه الشّجرة. سوداء.

- ما الذي تقوله يا ساندور؟ إنّ أمّك لم تمت.

- بلى، لقد ماتت، منذ زمنٍ بعيد. لم تعد إلا ركاماً من العظام تحت الأرض. أبي قتلها.

قال الطّفل: - كلّ ما تقوله خطأ. إنّي عاتبٌ عليك.

- بإمكانك ذلك. وحدك تستطيع أن تعاتبني. أنا بحاجةٍ إلى حنانك.

- أحبُّ أن تجدَ السلام في داخلك يا ساندور، لكنّي أظنُّ أنّك لن تجده أبداً.

- بلى. [أجده] حينَ أنظر إليك، حين تكلّمني.

قال الطّفل: - أنا لن أبقى أبداً هنا. لكن لا تنسَ أنّه سيبقى ثمّة أخي، ماتياس. شخصٌ تحبّهُ.

- وهل سيحبّني هو؟

- لم يبقَ له سواك.

- أمّا أنا فلا أحبّه. أكرهه.

قال الطّفل بثقة: - موقفك هذا سيتغيّرُ. سوف تحبّه.

ماتَ الطّفلُ.

ساندور مستلقٍ على عشب الحديقة.

فكّر: - لقد تعرّت الحياة. لم يبقَ لي شيء.

أتت أختُه.

- تعال يا ساندور، نحن ذاهبون إلى الغابة مع ماما.

قال ساندور: - ألا تفهمين؟ لقد أحببته. وما عاد موجوداً.

قالت أخته وهي تؤرجح سلّة قطاف التوت البريّ: - عمّن تتحدّث؟

قال ساندور: - انصرفي.

قالت أخته: - أريدُ حقاً أن أنصرف؛ لكنّي أودُّ أن أعرفَ عمّن تتحدّثُ؟

- أنت لا تعرفينَه، هيّا ارحلي!

- إنّك مجنون. سأذهب مع أمّي.

انصرفتِ.

تساءلَ ساندور: - أيّ أمٍّ؟ شجرةٌ يابسة.

قصدَ المنزلَ.

ماتياس كان هناك. جديراً بالتّقدير. مرتدياً بذلةً سوداءَ. وكان الحضورُ يغادرون.

ظلّ ساندور وماتياس وحدهما في المطبخ الواسع.

نامَ ساندور.

لاحقاً، وقد استيقظَ مفزوعاً، خرج إلى الباحة. وهناك رأى ماتياس راقداً في الوحل.

سأله: - هل تستطيع أن تمشي؟

فقال ماتياس: - اتركني هنا. غداً سيكون كلّ شيءٍ على ما يرام.

السّماءُ كانت رمادية، لكنّ المطر ما عاد يسقط.

قال ساندور لنفسه: - النّومُ، النّوم دائماً وأبداً.

لكنّه غادر سريره.

- ماتياس! أينَ أنت؟

وجدَه في المطبخ منهمكاً في قلي بيضات.

سأله: - هل سنأكل؟

أجاب ماتياس: - نعم، سنأكل.

لم يأتِ أحدٌ منهما على ذكرِ الطّفل.

لم يتحدّثا أبداً عن الطّفل.

كلّ صباحٍ كان ساندور يستيقظ من كابوس.

ثمّ يفكّر في ماتياس.

- إنّه هنا، في مكانٍ ما من البيت.

ذاتَ مساءٍ، تناولا طعامهما من دون أن يتبادلا النّظر، صامتين، على دأبهما. كان ساندور يشعر بتعبٍ عظيمٍ. وماتياس جالسٌ أمامه، ساكناً، شارداً، يحدّق في صحنه الفارغ.

فكّر ساندور: - لربّما ينتظر أن أكلّمه، فيغادر إذّاك المطبخَ.

بالخارج كان الجوّ بارداً. سحبٌ ثقيلة تعبر من أمام قمرٍ بِلَونٍ برتقاليّ عنيف.

وكان ساندور يتساءل عمّا إذا كان بمقدوره أن ينامَ رغم تعبه الشّديد. كان خائفاً من العودة إلى غرفته، وسريره، وكان خائفاً في المقام الأوّل من أن يستيقظَ في اليوم الموالي.

قال صوتٌ بجانبه: - أنا خائفٌ.

أخُ الطّفل كان هناك، مستنداً إلى الجدار، ربّما منذ وقتٍ طويل.

قال ساندور: - أنا ذاهبٌ لأنام.

قال الآخر: - لا، أرجوك! لا تنم مرّةً أخرى. ابقَ معي.

سأله ساندور بصوتٍ ملؤه النّفورُ: - لماذا؟

أمسكه الآخر من ذراعه: - تعال!

وشدّ عليه بقوّة، بحيث ما كان ساندور يملك أيّ إمكانٍ ليتحرّر.

وسحبه خلفَ المنزل.

قال وهو يفتح بابَ القبو الواطئَ: - اسمي ماتياس.

أجاب ساندور: أعرف ذلك، أعرفه حقّ المعرفة.

قال الآخر: - حان وقت التعارف.

ثمّ سكب بعض النّبيذ في كأسٍ، وأضافَ: - هل تريد منه؟

أجابه ساندور باشمئزازٍ: - عمري لا يتجاوز ثلاث عشرة سنةً.

قال الآخر: وأنا كذلك. (ثمّ شربَ).

فكّر ساندور: - أنا أكرهه. إنّ قوّته تفوق قوّتي بمقدار الضّعف. وهو أكبر منّي حجماً. أكرهه!

قال ماتياس: - لا تخَف! لستُ أسعى إلى إكسابك عادة الشّرب. أنا نفسي لا أشرب إلا نادراً.

لم يكن ساندور يصغي إليه. كان يتفرّس في وجهه.

كان ماتياس شاحباً، عيناهُ، قعرانِ أسودانِ، مسمّرتان في الأرض، وانتبه ساندور إلى أنّه كان جميلاً، قدر جمال أخيه، الطّفل الميت الذي لشدَّ ما تمنّى موتَه.

- هاتِ الشّرابَ.

مدَّ إليه ماتياس الكأس من دون أن ينظر إليه.

لاحقاً قال ساندور: - ماتياس، لم يعد ثمّة من يُحَبُّ سواكَ.

رفع ماتياس عينيه إلى ساندور: - لستُ شخصاً يُحَبُّ!

شربا المزيدَ.

نامَ ماتياس. يداه متباعدتان، ورأسه مقلوب إلى الخلف، فوق البراميل.

خرج ساندور.

بردٌ شديدٌ يهبُّ من السّماء.

قال لنفسه: - ليس بوسع المرء حتّى أن يبكي.

مع الفجر، أخذه ماتياس بين ذراعيه: - اذهب لتنامَ يا أخي، أوشك الصّباح أن يطلع.

- أبي عائدٌ يا ماتياس.

قال ماتياس: اقتُله!

قال ساندور: - لا أستطيع. سأرحلُ.

قال ماتياس: - ترحل من دوني؟

- أجل، لكن قبل الرحيل ثمّة أشياءٌ ينبغي أن أقوم بها. أنا ذاهبٌ لرؤية منزلي. بوسعك أن ترافقني.

قال ماتياس: - حسناً. أنا أحبُّ النّارَ.

سأله ساندور: - كيف عرفتَ ذلك؟

قال ماتياس: - هيا بنا.

وصلا مساءً. كان ساندور قد أخذ معه علبة بنزين. رشّ بالسائل الجدران، والقبو، والدرج.

كان ماتياس يتابع ذلك من الحديقة. أتى ساندور إليه:

- لقد نسيتُ أعواد الثّقاب.

قال ماتياس: - عندي منها.

صعدا إلى التلّ. كان المنظر بديعاً.

قال ماتياس: - أحبُّ النّارَ.

قال ساندور: - أحبُّ منزلي.

ثمّ أضافَ لاحقاً: - أنا سعيدٌ. سوف أتهيّأ.

سأله ماتياس: - إلى أين أنت ذاهب؟

- سوف أعبر الألغامَ.

- قد تموت.

- ذاك أيضاً سيكون رحيلاً.

قال ماتياس: - بإمكانك أيضاً أن تبقى. ألست قادراً على الصّفح؟

- لستُ قادراً عليه يا ماتياس. أنا راحلٌ.

- بدوني؟

- لن تشتاق إليّ.

قال ماتياس: - لكنّك أنت سوف تشتاقُ إليّ. وذات يومٍ سوف تعود.

عادَساندور.

وجد منزل ماتياس فارغاً. والحديقة كذلك. قصدَ النّهرَ. كان ماتياس هناك، يصطاد بالقصبة. جلس ساندور بجانبه:

- هل تصطادُ الكثير؟

قال ماتياس: - لا شيء. منذ زمن طويلٍ ما عاد ثمّة من أسماك هنا.

- ومع ذلك ما زلتَ تصطاد؟

- كنتُ أنتظرك.

قاما معا، واتّجها صوبَ القرية.

قال ماتياس: - أبوك مات. وأمّك كذلك.

توقّفساندور أمام منزلٍ.

قال ماتياس: - بلى، إنّه منزلك. لقد عرفتَه.

- لكنّه لم يكن هنا من قبلُ. لقد كان في مدينةٍ أخرى.

صحّح ماتياس: - بل في حياةٍ أخرى. والآن صار هنا، وإنّه فارغ.

وصلا إلى بيت ماتياس.

صبيّانِ كانا جالسين أمام الباب المغلق.

قال ماتياس: - إنّهما ولدايَ. أمّهما رحلت.

دخلوا جميعاً إلى المطبخ الفسيح.

أعدَّ ماتياس وجبة المساء. أكل الطّفلان صامتين، من دون أن يرفعا أعينهما.

قال ساندور: - طفلاك سعيدان.

- قال ماتياس: - سعيدان جداً. سآخذهما إلى الفراش.

لاحقاً، نزلا إلى القبو.

قال ماتياس: - البراميل فارغة، لكنّ عندي قنينة برقوق.

شربا.

قال ماتياس: - غداً تستطيع الذّهاب لتسكن في بيتك.

قال ساندور: - ما عدت أرغب في ذلك. إن سمحت لي سوف ألعب مع طفليك.

قال ماتياس: - إنّهما لا يلعبان البتّة.

لاحقاً قال ساندور: - أنا أيضاً كان عندي ابنٌ.

- هل مات؟

- كلاّ، لقد كبر.

قال ماتياس: - طبيعي. ينبغي أن يعبر الحياةَ.

- الحياة؟ لمَ؟ لقد عبرتُها أنا وما وجدتُ شيئاً.

أجابه ماتياس: - ليس ثمة شيءٌ لنجده، ليس ثمّة شيء.

- ثمّة أنت يا ماتياس. ولأجلك عدتُ.

- أنا، كما تعرفُ، لستُ إلا حلماً. عليك أن تتقبّل هذا الأمرَ يا ساندور. ليس ثمّة شيءٌ، في أيّ مكانٍ.

سأله ساندور: - والإله؟

لم يحر ماتياس جواباً.

- والحب؟ لقد أحببتُ مرّةً يا ماتياس، أحببتُ امرأةً.

لم يحر ماتياس جواباً.

خرج ساندور إلى الباحة. بردٌ شديدٌ يهبُّ من السّماء.

- أينك يا ماتياس؟ لقد خسرتُ كلّ شيءٍ إذ تركتك. حاولتُ من دونك. لعبتُ، سرقتُ، قتلتُ، أحببتُ. لكن لم يكن لأيّ شيءٍ من ذلك معنىً. من دونك كان اللعبُ بلا معنىً، والثورة بلا شرارةٍ، والحبُّ بلا طعمٍ. لم أكن طيلة عشرينَ سنةً إلا غياباً كئيباً.

- أينك يا ماتياس؟

النّجوم كانت تتلألأ في عزلتها اللانهائية.

أشرقت الشّمسُ مرّةً أخرى.

كان ساندور راقداً في سريره بمنزله.

ماتياس ممسكٌ بيده.

- كنتَ مريضاً جداً يا ساندور. لكن الآن، كلّ شيءٍ على ما يرام.

قال ساندور: - أعلم. لقد رأيتُ كابوساً.

قال ماتياس: - أصغِ إلى الضّجيج.

أغمض ساندور عينيه. بالخارج كان والده يقطع الخشبَ، وأمّه تغنّي بالمطبخ. كانت الغرفة مليئةً بالظلال والأضواء والصّمت.

قال ماتياس: - غداً نذهبُ للصّيد.

قال ساندور: - أجل، غداً. لكنّني وَسنان. ينبغي إيقافُ السّاعة يا ماتياس. إنّها تزعجني.

فهم ماتياس المقصودَ. ووضع كفّه الواسعة المريحة على قلب أخيه.

لين، الزّمن

الشّخصيات

لين ١٢ سنة.

مارك ٢٢ سنة.

لين ٢٢ سنة.

مارك ٣٢ سنة.

في المقطعين معاً، يمكن أن تقطعَ الحوار، أو تُصاحبه أصواتٌ مختلفة: بائع مثلّجات يمرُّ صائحاً: «فانيلا، شوكولا!»، أرغن آلي، نداءات، صيحات، صراخ أطفال، إلخ.

المقطع الأوّلُ: حديقةٌ. مارك جالسٌ على مقعد. تقتربُ منه لين ركضاً.

لين (ضاحكة): - إلى الغد، فالاتين! (تتوقّف أمام مارك.) مارك؟ أأنتَ حزين؟

مارك: مرحباً يا لين.

لين: ألم تأتِ؟

مارك: من؟ بلى، أتت، لكنّها كانت مستعجلة.

لين: إنّها مستعجلةٌ على الدّوام.

مارك: بسبب الأطفال. بسبب أرباب العمل.

لين: الشّابات الأخريات لا يتعجّلن قطّ. أمس، رأيتُ أنِيت، وقد ثرثرت ساعةً مع رجلٍ مُلتحٍ.

مارك: أنيت، تثرثر مع أيّ كان.

لين: لأنّها لطيفة، لأنّها ليست مستعجلة.

مارك: اذهبي لتلعبي يا لين.

لين: لا أستطيع أن ألعب، عليّ أن أعود إلى المنزل. أوشك المساء أن يحلّ.

مارك: عليك أن تعودي إلى المنزل إذن.

لين: أوه، ما يزال لديّ من الوقت ما يكفي لأثرثر معك.

مارك: لا رغبة لديّ في الثرثرة يا لين. أريد أن أبقى وحدي.

لين: هل أُزعجك؟

مارك: لا تزعجينني، لكن... لن تستطيعي أن تفهمي.

لين: بلى، أفهم. أنت حزينٌ لأنّها كانت مستعجلة.

مارك: كلاّ، ليس لأنّها كانت مستعجلة، وإنّما لأنّها تظاهرت بأنّها مستعجلة.

لين: إنّها لا ترغبُ في التّوقف حين تراكَ، وهذا كلّ ما في الأمر. إنّها لا ترغبُ في الحديث إليك. أنت لا تعجبُها. لا تثير اهتمامها.

مارك: لكن، ما دخلك أنت؟ ثمّ، امسحي فمك أوّلاً.

لين: لِمَ؟ هل مرسوم على فمي شاربٌ؟ لقد أكلت مثلّجاتٍ بالكريم-كراميل.

مارك: واضح.

لين: (تمسح على فمها) - ما زالَ؟

مارك: أجل، قليلاً. قليلاً جداً. هل تمشّطين شعرك من حين إلى آخر؟

لين: - كلّ صباحٍ لمَ؟

مارك: - لا يبدو ذلك.

لين: - طبعا، مساءً... وأنت؟ لمَ تلبسُ هكذا؟

مارك: - أنا ألبسُ... لباساً عادياً.

لين: - كلاّ، ليس لباساً عادياً، أنت تضع وشاحاً. الطّقس أحرُّ من أن يرتديَ فيه المرء وشاحاً. أنا حافيةُ القدمين، ولا أشعرُ بالبرد.

مارك: - لم أضع الوشاح لأنّ الجوّ باردٌ، وإنّما لكي أبدوَ جميلاً.

لين: - تحسبُ أنّ الوشاح شيءٌ جميل؟ (ثمّ وهي تشدّد على حرف الباء) ليس لأنّ أباك سبّاك سيبتاع لك بالضّرورة لباساً مقاوماً للبلل[1].

مارك: - لين! رذاذ لعابك يتطاير في وجهي!

---

(١) أجرينا تحويراً بسيطاً للعبارة، إبرازا لحرف باء كما شاءت المؤلّفة.

لين: - وهذا تحديداً هو الطّريفُ في الأمر.

مارك: - لا شيء طريفٌ هنا.

لين: - بلى. لقد اخترعتُ هذه الطّريقة مع فالانتين. كلّما حاولت فتاةٌ من فتيات الفصل أن تختال في زيّها نقول لها ورذاذ لعابنا يتطاير: - ليس لأنّ أباك....

مارك: - هلاّ، توقّفت فوراً يا لين! لله ما أزعجك!

لين: - ليس لطفاً منك قولُ هذا يا مارك. لم أرد إلا إضحاكك. لكنّك لا تفهم الدّعابة. ثمّ إنّي أجدك أفضل من دون وشاحٍ. لديك رقبةٌ ملوّحةٌ جميلة.

مارك: - عيب يا لين!

لين: - نعم، ذاك ما أراه. لمَ تفعل كلّ هذا يا مارك؟

مارك: - ماذا أفعل؟

لين: - تلبس مثل فزّاعةِ حقلٍ. وحين تمرُّ هيَ تتضرّج أنتَ حُمرةً. وتتصرّف بطريقة غبية.

مارك: - هل تتجسّسين عليّ؟

لين: - كلاّ، أراك خلل الشّجيرات. ولا أحبّ أن أراك... على غير عادتك.

مارك: - لا تستطيعين أن تفهمي. إنّي أفعل كلّ ذلك فقط لكي تحبّني.

لين: - لمَ يهمّك جداً أن تحبّك؟

مارك: - أنت، أيّتها الصّغيرة لين، ألا تحبّين أن تُحبّي؟

لين: - لا أدري. أظنُّ أنّني لا أحفل للأمر. إن أُحببتُ فجيّد، وإن لم أحبّ فلا جيّد.

مارك: - لا نقول «لا جيّد» وإنّما نقول لا بأس.

لين: - حسناً، لا بأس.

مارك: - لكن ليس الأمران بالنّسبة إليك سيّين.

لين: - طبعاً أحبُّ أفضلَ...

مارك: - أفضّلُ...

لين: - أجل، أفضّلُ أن أحبَّ، لكن أن أحبَّ كما أنا هكذا.

مارك: - والداك.

لين: - والداي لا علاقة لهما بالأمر. والداي يحبّانني في جميع الأحوال. لكنّ حبَّ والديَّ ليس هو مستقبلي.

مارك: - مستقبلك! تتحدّثين عن المستقبل في هذه السنّ الصّغيرة جداً!

لين: - لستُ صغيرةً جداً. أنا في الثانية عشرة من عمري. لستَ تفوقني سناً إلا بعشر سنوات.

مارك: - إنّ عشر سنوات فارقٌ كبير يا لين، فارق مهول.

لين: - عشر سنوات ليست بالشّيء الذي يذكر. لقد سألتُ أمّي. أبي يفوقها بثمان سنواتٍ.

مارك: - ما الذي تقصدينه يا لين؟

لين: - لا شيء (برهةٌ زمنية.) لكن أرى أنّه لا ينبغي عليك أن. . .

مارك: - ما الذي لا ينبغي عليّ؟

لين: - لا ينبغي أن تظهر بخلاف طبيعتك، لكي تثير الإعجاب.

مارك: - لن تفهمي يا لين، أنت ما زلت طفلةً.

لين: - أجل، طفلة تلعب في الشّارع حافيةَ القدمين. لكنّي سوف أكبر. سريعاً. السنوات تمرّ سريعاً، لعلمك. ستتوالى الأيامُ. . . فأصبح صبيّة كبيرة.

مارك: - طبعاً، سيأتي يومٌ تصيرين فيه صبيّةً كبيرة.

لين: - كبيرة بما يكفي لكي أتزوّج.

مارك: - لكي تتزوجي؟ ما زال الوقت مبكّراً على التفكير في هذا يا لين.

لين: - ومع ذلك أنا أفكّر فيه. سأقول لك شيئاً يا مارك: أنا لن أتزوّج إلا بك.

مارك: - إلا بي؟ ولمَ؟

لين: - لأنّك وسيمٌ. ولأنّك علّمتني الشّطرنج. ولأنّي أحبّك.

مارك: - تحبّينني كصديقٍ أكبرَ يا لين.

لين: - أجل، أحبّك كذلك، وأكثر. أحبّك كما أحبّ ماما وبابا، وأكثر. أحبّك كما أحبّ صديقتي فالانتين، وأكثر. مثل قطّي، شارابيا، وأكثر. أنا متيّمةٌ بك.

مارك: - عيب يا لين! مثل هذه الأشياء لا ينبغي أن تقال.

لين: - لماذا؟ ما دمت أقول الصّدقَ. أعرف أنّه لا ينبغي قول الأكاذيب، أفهم ذلك، ولا أكذب إلا نادراً. لكن الحقيقة، بوسعنا أن نقولها متى شئنا، أليس كذلك؟ وصدقاً أنا متيّمةٌ بك.

مارك: - لين أنت لا تعرفين حتّى ما تقولينه. هذا الكلام لا يليق بسنّك.

لين: - سنّي! دائماً ما ترجع إلى سنّي! حسناً إذن، أنا أتقدّمُ سنّي. أعلم حقّا ماذا يعني أن يكون الإنسانُ متيّماً. نكون متيّمين بشخصٍ ما حين نرغبُ في الزّواج به.

مارك: - ليس دائماً يا لين، ليس بالضّرورة.

لين: - أوه! لا أقصد الآن فوراً، أنا لستُ حمقاء؛ لكن لاحقاً، بعد خمس سنواتٍ، ثمان...

مارك: - بعد خمس سنواتٍ أو ثمان سوف تكفّين عن التّفكير بي يا لين.

لين: - هنا، أقول لك إنّك مخطئ! إنّك أنت من لا يعرف ما الحبّ!

مارك: - أفضّلُ أن لا أعرفه البتّة.

لين: - لم؟ إنّ الحبَّ شيء جميلٌ للغاية. مساءً أفكّر فيك، أتخيّلك جالساً على حافة سريري. تبتسم لي. إذّاك أنام، وحين أستيقظ أكون سعيدة، أركض في الحديقة للقائك. لو لم أكن أحبّك، فما عساي كنت سأفعل؟

مارك: - كنت ستذهبين إلى المدرسة، وتلعبين مع فالانتين.

لين: - أجل، لكن فيمَ سأفكّر؟ بمن سأحلم؟ لو لم تكن موجوداً يا مارك لكنتُ... كيومٍ ماطرٍ.

مارك: - الحبُّ ليس دوماً سعيداً يا لين. إنّه يسبّب الألم أيضاً.

لين: - أعرف. ألا تصدّق أنّي أتألّم حين أراك جالساً هنا، ببلادةٍ، تنتظر شابةً لا تكلّف نفسها حتّى عناء النّظر إليك؟ وأؤكّد لك إنّك تثير اشمئزازي بوشاحك ولباقتك المفرطة! أكاد أرغبُ في أن أكون عاشقةً لشخصٍ آخرَ، حين أراك على هذه الحال!

مارك: - أجل، سيكون ذلك أفضل. كوني عاشقةً لشخصٍ آخر يا لين. أحبّي فتىً في سنّك.

لين: - فتىً في سنّي! هل سبق أن تأمّلت فتىً في سنّي؟ الأولاد في سنّنا يقضون وقتهم في إزعاجنا، ثمّ بعد ذلك ينصرفون إلى لعب كرة القَدم. ثمّ، هل تظنُّ يا مارك، أنّ بإمكاننا أن نختار؟ أن نختار من نحبُّ؟

مارك: - كلاّ، لا نستطيع، أنت محقّةٌ. لكن... هل تبكين؟ لا تبكِ يا لين الصغيرة، لا تبكِ.

لين: - ليس بكاءً، هو حنق؛ لكنّك سترى: قريباً سأكبر، وأصير أجمل منها، وأذكى، وألطف؛ ولن أكون أبداً مستعجلةً، سوف ترى، بعد خمس سنواتٍ أو ثمان.

مارك: - أجل، يا لين. لا تبكِ، اهدئي، عودي إلى المنزل. اسمعي، أمّك تناديك.

الأمّ: - لين! يا لين! عودي إلى المنزل فورا! السّاعة تجاوزت الثّامنة!.

لين: - نعم يا ماما، أنا قادمة! أنا أبحث عن القط!.

(تبتعد صائحةً) شارابيا! شارابيا!

المقطع الثاني: بعد عشر سنواتٍ. نفس الحديقة. لين جالسةٌ على مقعد، تقرأ. يمرّ مارك.

لين: - مارك!

مارك: (يتوقّف) - آنسة؟

لين: - مارك! ألم تعرفني؟

مارك: - آسف، لا أذكر...

لين: - مارك! أنا لين.

مارك: - لين؟ كلاّ، مستحيل! كانت لي جارةٌ صغيرة تسمّى لين...

لين: - الوقت يمضي يا مارك! أنا الآن في الثانية والعشرين...

مارك: - اثنتان وعشرون سنةً! ما كنت لأتعرّف عليك. لقد تغيّرت كثيراً.

لين: - أرأيت! أنا تعرّفت عليك فوراً. ذاك أنّك لم تتغيّر وإن بدت عليك أمارات الكبر واضحةً...

مارك: - لا تبالغي يا لين. أنا لستُ إلا في الثانية والثلاثين. لكن هل ما زال بإمكاني أن... أخاطبك بضمير المفرد، أقصد كما في الماضي؟

لين: - أجل، ما زال، كما في الماضي. هلاّ جلستَ لحظةً.

مارك: (يجلس) - نعم، بعد إذنك. (برهةٌ زمنية).

لين: - لِمَ عدت بعد كلّ هذه السّنوات؟

مارك: لماذا؟ ربّما لكي ألتقي من جديد فتاةً صغيرة كانت فيما مضى تلعب بالطّارة.

لين: - لعبةُ الطّارة عفا عنها الدّهرُ.

مارك: - وبِمَ يلعبُ الأطفالُ اليومَ؟

لين: - لا علم لي، الألعاب تتبدّلُ باستمرار.

مارك: - وأنت يا لين، بما صرت تلعبين اليوم؟

لين: - ما عدتُ ألعب. أقرأ. أنا طالبة في علوم الاقتصاد.

مارك: - في علوم الاقتصاد؟ أنت؟

لين: - نعم، أنا. لِمَ يدهشك الأمرُ؟

مارك: - لا أدري. أنت محقّة. ما المانع في أن تكوني طالبة في علوم الاقتصاد؟

لين: - تبدو حزيناً يا مارك. هل سببُ حزنك دراستي علوم الاقتصاد؟

مارك: - كلاّ، ليس ذلك فقط؛ أنا حزينٌ أيضاً بسبب شعرك.

لين: - ماذا به شعري؟

مارك: - شعرك أقصر. وممشّطٌ على نحوٍ جيّد.

لين: - حين لا يكون ثمّة ريحٌ، يظلُّ ممشّطاً على نحوٍ جيّد.

مارك: - حين... قبلُ... لم يكن شعرك قطّ ممشّطاً على نحوٍ جيّد... وفمك، وقدماك...

لين: - فمي وقدماي؟

مارك: - فمك ليس ملطّخاً بالشوكولا، وتنتعلين حذاءً، يا لين. ما عدت تسيرين حافية القدمين.

لين: (ضاحكة) - وأنت ما عدت تضع وشاحك يا مارك.

مارك: - أيّ وشاحٍ؟

لين: - الوشاح الذي كنت تضعه حين كنت ترغب في إثارة إعجاب أشخاص بعينهم.

مارك: - لم تكوني تحبّين وشاحي. أتذكّر ذلك. كنت تفضّلين عنقي عارياً وملوّحاً.

لين: - لا تكن فظاً يا مارك. (برهة زمنية). أين كنت طيلة هذا الوقت؟

مارك: - كنت بإنجلترا. تبعت امرأةً.

لين: - وكانت أيضاً مستعجلة على الدّوام؟

مارك: - كانت أقلّ استعجالا. حتّى أنّي وجدت الوقت لأتزوّجها.

لين: - تهانيَّ.

مارك: - لا شيء يستدعي التهنئة. أنا الآن مطلّق.

لين: - برافو!

مارك: - تسخرين منّي.

لين: -لِمَ لا؟ أجد كلّ هذا عجيباً.

مارك: - لين!

لين: - الجميع ينادونني اليوم كارولين. لين مجرّد اسم تصغيرٍ يطلق على الأطفال. اسمي الحقيقي كارولين.

مارك: - بالنّسبة إليّ ستظلّين دوماً لين. لين، إذا ما كنت قد عُدتُ، فإنّما عودتي لأجلك.

لين: - عدت لطفلةٍ صغيرةٍ كانت تحبّك دونما رجاءٍ؟

مارك: - أكنت تحبينني يا لين؟ حقاً؟

لين: - حتّى أنّي قلتها لك مرّةً. كنت أحبُّ شعرك، وعينيك، وذراعيك، ورقبتك الملوّحة، وخجلك، ولطفك، كنت أحبّ كلّ ما فيك يا مارك... ورحلتَ.

مارك: - وقد عُدت.

لين: - لم تعد لأجلي. عدت لتستعيد أجواء ما مضى، شبابك، أحلامك، أوهامك.

مارك: - والفتاة الصّغيرة التي كانت تحبّني. كنت أنت يا لين.

لين: - كنتُ. ثمّ إنّ سنّك كبيرةٌ جداً بالنّسبة إليّ.

مارك: - عشر سنواتٍ ليست بالفرق الكبير.

لين: - والديّ كانت تفصل بينهما ثمان سنواتٍ. وقد انفصلا.

مارك: - لم ينفصلا بالضّرورة بسبب فارق السنّ بينهما.

لين: - كلاّ، ليس بالضّرورة. أنت أيضاً انفصلتَ، ولم يكن بينكما فارقُ سنٍّ كبير، أليس كذلك؟

مارك: - تقريباً لا فارقَ. سنةٌ واحدةٌ بالكاد.

لين: - لمَ انفصلتُما يا مارك؟

مارك: - أوه يا لين، لا أدري. الزمن يمرُّ، والنّاسُ تتغيّرُ... يصعبُ الشّرحُ.

لين: - وأنا بلا شكّ أصغر من أن أفهمَ.

مارك: - بمعنى ما، نعم. ما زلت لم تخوضي تجربة الزّواج.

لين: - باستثناء تجربة زواج والديّ. هل رزقتَ أطفالاً يا مارك؟

مارك: - كلاّ، لم أرزق أطفالاً. لحسن الحظّ.

لين: - أجل، لحسن الحظّ.

مارك: - أما زلت تسكنين بالجوار يا لين؟

لين: - كلاّ. عندي غرفة بالحيّ الجامعيّ. لكنّي آتي لزيارة أمّي من حين إلى آخر.

مارك: - أمّي أنا ماتت.

لين: - أعلمُ، لقد حضرت مراسيم دفنها. وأنت لم تأتِ.

مارك: - ماتت تحديداً في لحظةٍ من لحظات حياتي حيثُ... لم يكن بإمكاني أن آتي. لكنّي زرتُ قبرها هذا الصّباح.

لين: - أجل. (برهةٌ زمنية). وما الذي تنوي فعله الآن؟

مارك: - لا أدري. أبحث عن عمل...

لين: - أيّ عمل؟ لقد تركت دراستك بسببها.

مارك: - أيّ عملٍ كيفما كانَ. ما يكفيني فقط لأعيش. أودُّ أن أبقى هنا، وأن أجد غرفةً...

لين: - عملٌ كيفما كان! أن تجد غرفة! لو أنّك لم ترحل...

مارك: - لا تغضبي.

لين: - أغضب؟ لمَ؟

(برهةٌ زمنية)

مارك: - لين؟

لين: - كارولين!

مارك: - بالنّسبة إليّ أنا أنت لين. دائماً.

لين: - كارولين بالنّسبة إلى الجميع.

مارك: - أنا لستُ الجميعَ. أنا كنتِ تحبّينني.

لين: - منذ عشر سنواتٍ.

مارك: - أجل، الزمن...

لين: - أجل، الزمن. لا أعرفُ ماضيك يا مارك. السنوات العشر التي قضيتها بعيداً عنّي. وأنت لا تعرفُ ماضيَّ.

مارك: - ليس لديك بعدُ ماضٍ يا لين. ما زالت سنّك صغيرةً جداً.

لين: - ما زلتُ صغيرةً، لكن عندي ماضٍ: أنت. طيلة عشر سنواتٍ ظللت آتي إلى هذه الحديقة كلّ يومٍ. وأنت لم تكن هنا. الحديقة ظلت هنا، مليئةً بالأطفال، بالأمّهات، بالشّابات، بالعجائز. مليئةً بالنّاس، ومع ذلك كانت فارغةً. بدونك كانت الحديقة بالنّسبة إليّ صحراء خالية.

مارك: - ما كان بوسعي أن أعرف أنّ الأمر... كان جديّاً. صبيّةٌ في الثانية عشرة من عمرها... أمّا الآن، أنا هنا يا لين، وأنت ما عدت طفلةً.

لين: - أجل، أنت هنا. على الشّمس أن تُشرق، وتضيء النّهارات، ولا شيء يحدث...

مارك: - بوسعنا ربّما أن نستعيدَ... أن نبدأ من جديد... كلّ شيء.

لين: - لا نستطيع أن نحذف السّنين العشر يا مارك. أتدري، لطالما حلمتُ بك وبعودتك؟ لكنّ أحلامي كانت مختلفةً. كنت أكبرَ وأجملَ وأشدّ مرحاً. كنت تعود بحثاً عنّي، ولم يكن على كاهلك هذا الماضي الثقيل والتّعيس. آه يا مارك، أظنّ أنّي لا أرغبُ أبداً في أن أراك مرّةً أخرى.

(تقوم، ويمسكها مارك من ذراعها).

مارك: - لا تتركين لي أيّ رجاء؟

لين: - وهل تركت لي أنت، فيما مضى، أيّ رجاءٍ؟ اترك ذراعي أرجوك! ثمّ إنّي مشغولةٌ جداً، امتحاناتي بعد ثلاثة أسابيع.

لين تذهب، فتاةٌ صغيرةٌ تأتي ركضاً، قدماها حافيتان. لها صوتُ لين أيّام كانت طفلةً.

الطّفلة الصّغيرة: - وداعا يا جانيت، إلى الغد! (تتوقّف أمام المقعد الذي يجلس عليه مارك.) أنت حزينٌ يا سيّدي.

مارك: ماذا تقولين؟

الطفلة الصّغيرة: كنت أسألك هل أنت حزينٌ لأنّها رحلت؟

مارك: من؟

الطفلة الصّغيرة: المرأة.

مارك: أيّ امرأة؟ لقد كانت شابّةً وليس امرأةً.

الطفلة الصّغيرة: تبدو امرأةً. كعبُ حذائها عالٍ.

مارك: الشّاباتُ أيضاً يرتدين أحذية بكعبٍ عالٍ.

الطفلة الصّغيرة: تقصد أنّ الكعوب العالية ترتدي أيضاً فتياتٍ شابّات(١)؟ هذا هو المنطق.

مارك: أجل أنت محقّة يا لين. هذا هو المنطق.

الطفلة الصّغيرة: اسمي ليس لين، اسمي ألين.

مارك: ألين؟ اسمٌ جميل.

الطفلة الصّغيرة: يسمّونني أيضاً ماندولين، كرينولين، آير-لين، كلّ تلك الأسماء. ألن تطلق عليّ أنت أيضاً اسماً من هذه الأسماء الغبيّة؟

---

(١) لعبٌ لغوي بالفعل الفرنسي porter الذي يحمل، من بين معانٍ كثيرة يحملها، معنى «حمل» و«ارتدى».

مارك: لين، ليس اسماً غبياً.

الطفلة الصّغيرة: لكنّه ليس اسمي. أحبُّ أفضلَ...

مارك: أفضّلُ. نقول: أفضّلُ.

الطفلة الصّغيرة: أنت تتحدّث مثل مدرّس. (مارك يقوم). إلى أين أنت ذاهب؟

يشرع مارك في الرّكض.

الطفلة الصّغيرة: (تصيح): أتدري، إنّي أعرفُها. أراها كلّ يومٍ. لا فائدة في ملاحقتها. إنّها لا تكلّم أحداً البتّة. إنّها مستعجلةٌ على الدّوام.

وقعُ خطوات مارك.



أغوتا كريستوف، بين سنّي الخامسة والسادسة، بتشيكفاند.
(الأرشيف الأدبي السويسري).



١٩٤٣، أغوتا كريستوف مع أمّها وأخويها، صورة أُرسلت إلى الأب الذي كان في الجبهة. (الأرشيف الأدبي السويسري).

تذييل

«الكتابة لا تُعينني. إنّها تكاد تكون ممارسة انتحارية. الكتابة أشقُّ ما في العالم. ومع ذلك لا شيء يثير اهتمامي سوى الكتابة. مع أنّها ممارسةٌ تُمرضُني.[1]»

أغوتا كريستوف.

حين أوصلَها التقسيم العشوائيّ للاجئين إلى مدينة نيوشاتل، بعدما فرّت، رفقةَ زوجها، من السّحق الذي تعرّضت له هنغاريا على يد الفيالق السوفييتية، لم يكن متاع أغوتا كريستوف يتعدّى واحداً وعشرين عاماً، وطفلاً رضيعاً عمرُه أشهُرٌ، ومعجمٌ؛ وتلكم كانت أسلحتها في مواجهة عالمٍ جديدٍ تجهله كلّ الجهل، والمنفى، والوحدة، وتمزّق الحنين، ورتابة شغلِ المصنعِ القاهرة. ومع ذلك، فإنّ

(١) ضمن «الكتابة تكاد تكون ممارسة انتحارية» حوار أجراه مع المؤلّفة فيليب سافاري، مجلّة *Le Matricule des Ange*، عدد ١٤، ١٩٩٦، ص ٢١. (المؤلّفة).

المرأة التي تعلّمت القراءة في سنّ الرّابعة، وكتبت أشعارها الأولى في سنّ الرّابعة عشرة، ظلّت تحمل عميقاً هذه القناعة: «ما أنا متأكدة منه، هو أنّي كنت لأكتُبَ أنّى كانَ وبتوسّط أيِّ لغة[١].» أعطاها القدرُ اللّغة الفرنسية، فقبلت عطيّتَه كتحدٍّ: «تحدٍ تخوضه امرأة أميّة[٢]»، ما كان بوسعها آنذاك لا أن تقرأ، ولا أن تكتب، بهذه اللّغة «العدوّ»[٣]، اللّغة الوحش التي تمتصّ دم لغتها الأمّ، والتي مع ذلك ستجعل منها لغة كتابتها. على أنّ الانتقال لم يكن فورياً، إذ واصلت أغوتا نظم القصائد بلغتها الهنغارية، قصائد ضمّنت بعضاً منها، في صيغة نثرٍ، روايتَها أمس[٤]؛ الرواية التي كُتبت في شكل مقاطع تتناوب بين الحلم والسرد. وحين تُسأل عن الوقت الذي أخذه منها تعلّم اللغة الفرنسية، تجيب بهذا الجواب الذي يحمل طابع السخرية الذي يميّزها: «لم أحتج الكثير: فقط ستّ عشرة سنةً[٥]».

(١) الأمية، سيرة ذاتية للمؤلّفة، ترجمة محمّد آيت حنا، منشورات الجمل ٢٠١٥.

(٢) نفسه.

(٣) نفسه.

(٤) منشورات سُوي ١٩٩٥.

(٥) ضمن: «أغوتا كريستوف، الأكثر مبيعاً عالمياً»، حوارٌ أجراه بِرتيل غالان، جريدة *Le Nouveau Quotidien*، عدد ٠٩-٠٥-١٩٩٣، ص ١٧.

وفقط ابتداءً من سنتي ١٩٧٠-١٩٧١ ستبدأ في تحرير مسرحيّاتها، مباشرةً باللغة الفرنسية؛ تلك المسرحيات التي شخّصها ممثلون هواة. وكانت تلك الفترة أيضاً، فترةَ كتابة قصصها الأولى التي لن تنشر حتّى سنة ٢٠٠٥[١]. سنة ١٩٨٦ كانت أغوتا كريستوف ما تزال شبه مجهولةٍ في عالم الأدب، وإذا بكتابها الأوّل يحقّق نجاحاً باهراً، **الدفتر الكبير**، فتلاهُ **البرهانُ** ١٩٨٨، ثمّ **الكذبة الثالثة** الذي أتمّ سنة ١٩٩١ ثلاثية التوأمين المعروفة[٢]، صارت من بين الكتّاب الفرنكوفونيين الأكثر مقروئية وترجمةً (ترجمت إلى ٣٣ لغة)، وصار لها قرّاء من مختلف أنحاء العالم، قراء مأخوذين بكتابةٍ هي في آنٍ متقشّفة وعنيدة، كتابة ترفض كلّ زخرفةٍ، ساعيةً إلى أن تعبّر أشدّ ما يكون التّعبير عن سواد الحياة العنيف والمأساوي، الحياة كما تتصوّرها أغوتا كريستوف. الحالُ أنّ بالنّسبة إليها «مهما كان كتابٌ ما كئيباً، فإنّه لن يكون قطّ في درجة كآبة الحياة[٣]». إنّ وسواس الكتابة الحاضر في مجمل أعمالها (جميع

---

(١) المجموعة القصصية «سيّان»، ستظهر قريباً ضمن منشورات الجمل، بترجمة محمّد آيت حنا.

(٢) نُشرت الثلاثية ضمن منشورات سُوي، وترجمتُها العربية ضمن منشورات الجمل.

(٣) الكذبة الثالثة.

شخوصها تقريباً تكتب، لا بل تموت إذ لا تكتب) وفي حياتها («لا أحيا خارج الكتابة» تقول سنة ١٩٩٦[١])، قد يقع فريسةً لخيبةٍ عميقةٍ تُباعدُ بينها وبين نصوصها. ذاك ما اعترفت به سنة ٢٠٠٥، إذ تقرُّ بأنّها تشتغل بشكلٍ متقطّع على روايةٍ، وإذا بإمبراطورية العدم القاتل تنتصب أمامها، فلا يبقى لها إلا النّزر القليل من الرّاحة[٢].

«إنجازي الجيّد الوحيد، غير كتبي، هو أطفالي[٣]»

إنّ النّصين اللذين نقدّمهما في هذا الكتاب، مسرحية **لين، الزمن**، وقصّة **أينك يا ماتياس؟** قد استُخرجا من صندوق أغوتا كريستوف[٤]. نصّ **لين** مؤرّخ بسنة ١٩٧٨، بينما لا يحمل نص **ماتياس** أيّ إشارة تأريخية، لكنّه يعود بحسب توجيهات الكاتبة إلى بداية سنوات السبعينات. كلاهما يثيران، ولكن بطريقتين مختلفتين، هواجسَ

---

(١) ضمن «الكتابة تكاد تكون. . .» مرجع مذكور. ص ٢١.

(٢) «تمرين العدمية»، منشور ملحقاً ضمن ترجمة كتاب الأميّة إلى العربية، مرجع مذكور.

(٣) ضمن «الكتابة تكاد تكون. . .» مرجع مذكور. ص ٢١.

(٤) المقصود مخطوطات الكاتبة المودعة بالأرشيف الأدبي السويسري، بمدينة بيرن (المكتبة الوطنية السويسرية).

المؤلّفة: الطفولة وذكاؤها المرعب وسط عالمٍ منحرف، الحنين إلى التوأم المثالي، خيانة الكلمات، يأس الحياة، تميُّعُ الزمن. تحفظ أغوتا كريستوف، فيما وراء قطيعة المنفى، الحنينَ إلى طفولتها القاسية والقوية، تلك الطفولة التي تبدو وحدها تنفلت من سيرورة التحرّر من الأوهام التي تحكم حياتها بأكملها. فعلى الرّغم من أنّها قلّما تحفل بما يجري في العالم الخارجي، إلا أنّها تشير إلى أنّ ثمّة قضيّة واحدة فقط يمكن أن تستنهضها: «قضيّة الأطفال. لأنّها تحبّ الأطفال[1]». على أيّة حالٍ، تظلُّ الطّفولة في رواياتها الموضوعةَ الوحيدة التي تشهد بناءً تفاؤلياً، بغضّ النّظر عن درجة عنفها وانحرافها - لكن هل يمكن أن تُقدّم الطّفولةُ على نحوٍ مغايرٍ في عالمٍ أفلت من مداره؟ بإمكاننا أن نقرأ **الدّفتر الكبير** كروايةِ تكوينٍ مضادٍ، حيث التوأمان، المنتصران والسّاخران كأنّهما رومولوس وريموس[2] جديدين، يشكّلان حضارةَ نفسِهما، ينتصبان ضدّ أو على هامش عالمٍ ما عاد يعرف حضارته أو ما عاد يريد أن يفصح عنها. وقد يندرج ماتياس ضمن هذا السّجل، لكن على الطّريقة الحُلمية والسريالية التي تصدم

---

(١) ضمن «الكتابة تكاد تكون. . .» مرجع مذكور. ص ٢١.
(٢) رضيعا الذئبة اللذان تُرجع إليهما الأساطير نشأة مدينة روما.

يقينيات القارئ مباشرةً. من الذي يتحدّث؟ من الذي يحلم؟ أنحنُ في هذيانِ طفلٍ محموم؟ في وقائع انفصام شخصيةٍ؟ أم في الطّريق إليه؟ هل نستشفّ في **ماتياس** هذا ملامحَ ماتياس الآخر، أقصد ماتياس الطّفل الضائع والمنتحر في رواية **البرهان**؟ لكن -وهذا ما يعلمه علم اليقين جميع قراء أغوتا كريستوف- «ليس ثمّة شيءٌ لنجِدَه» و، في جميع الأحوال، «دائماً ما تصيح الديكةُ قبل الأوان».

أشدَّ خفّةً ومرحاً، تُمثّل لين فطنةَ الطّفولة العنيدةَ والجذابةَ والمولعةَ بالجدال، التي تخترع «**لا جيّد**» بدلاً من أن تقول «**لا بأس**»؛ التي تعرف أنّ الصبايا لسنَ هنّ من يلبسن الكعوب العالية، وإنّما الكعوب العالية هي من يلبسُ الصبايا؛ التي تفتنُها الجناسات والقوافي؛التي يُطلقون عليها أسماءَ غبيّة وتحبيبية، لين، ماندولين، كرينولين، والتي يسمّى قطُّها شارابيا[1]؛ العاشقةُ عشقاً لن تعرفَ مثيلَه حين تصير بالغة. بالغة! ثمّ مرّةً أخرى يندثرُ كلّ شيءٍ. لا كارثة مطلقة هنا، وإنّما فقط فشل: أهذا أفضل؟ «سيّان»، سوف تجيبنا أغوتا كريستوف التي تظلُّ العدمية منفذها الأخيرَ[2].

---

(١) حرفياً يحمل الاسم معاني الرطانة والهراء.

(٢) «تمرين العدمية»، مرجع مذكور. ص ص ٩٢-٩٦.

العدمية التي كان سيوران، وهو أحد منفيي اللغة الآخرين، قد أعطاها في كتابه أفول الأفكار[1]، أشدّ التعريفات الدّقيقة مفارقةً: «العدمية: الصيغة القصوى للعطف.»

ماري- تيريز لاتيون

---

(١) سيوران، الأعمال، كوارتو، كاليمار. ١٩٩٥.

أغوتا كريستوف

بورتريه

بقلم سارا دو بالسي

منذ رحيل أغوتا كريستوف، ظلّت العقبة الأساس أمام النّقد في محاولته تحديد ملامح عملِها، هي أنّها لم تترك أيّ عملٍ نظريّ يمكن أن يُستند إليه في تحليل نصوصها. وعلى الرّغم من أنّها كانت ثنائية اللّسان، إلا أنّها لم تحاول قطّ أن تترجم، ولا أن تكتب عن أعمال الكتّاب الآخرين. وعليه فإنّ أغوتا كريستوف تنفلت من كلّ تصنيف قد يربطها بجماعة مخصوصة من الكتّاب، بما فيهم جماعة كتّاب المهجر «الافتراضية». وحتّى داخل حقل التنظير الشّاسع، حقل الفرنكوفونية، تظلّ وضعيّتها مختلفةً وغريبةً، خاصّة من حيث المسافة الفاصلة جغرافياً بينها وبين فرنسا، وبين باريس تحديداً بما هي عاصمةٌ ثقافية؛ وذلك على الرّغم من أنّها قد نشرت معظم أعمالها لدى منشورات

سُوي الفرنسية. المؤكّد أنّ كاتبتنا تنتمي إلى مجموعة الكتّاب الذين يسمّيهم روبير جواني «حالات فرنكوفونية متفرّدة». أولئك الذين «من دون أن ينتموا إلى جماعة فرنكوفونية، اختاروا طواعية الكتابة باللّغة الفرنسية مع ما يستتبعه اختيارهم من قطيعة من اللّغة الأمّ». وهو انتماءٌ سوف نرى فيه، إنّ دقّقنا النّظر، نوعاً من اللا-انتماء، انتماء يتحدّد بالسّلب.

مقاوَمات:

وُلدت أغوتا كريستوف في هنغاريا سنة ١٩٣٥، وعبرت الحدود النّمساوية سنة ١٩٥٦، تاركةً إلى الأبد بلدها الأمّ. ثمّ، بعد بضعة أشهر وجدت نفسها «محض صدفة» بسويسرا في وضعيّة لجوء. وإذّاك بدأت «معركتها الضّارية» في سبيل تملّك اللّغة الفرنسية، اللّغة التي اختارتها لغةً للكتابة. يكاد المنفى يكون موضوعةَ أعمالها الوحيدة، ومحرّك السّردِ وفعلِ الكتابة نفسه. وكما أوردت هي بوضوحٍ في سيرتها، فقد وجدت هذه الموضوعةُ صدى لها في المسرحيات، حيث تُختزل الحبكةُ إلى أقصى حدّ وحيث تُتحوّلُ موضوعات النّصوص السّردية إلى صُور شديدة الرمزيّة (مسرحية **الطّريق**، **الوحش**. . .). تكتسي موضوعة المنفى، مع شيءٍ من التحوير والتّنوع، كذلك

أهميّة بالغةً في رواياتها: رواية **الدّفتر الكبير** قصّةُ طفلين توأمين يصلان مع أمّهما إلى قرية حدودية صغيرة، ولكي ينجوا من الحرب الدّائرة في العاصمة، يُعهد بهما إلى جدّتهما، امرأةٌ فظّةٌ وشريرة. وإذ انتُزعا من حنان العائلة وحبّها، فقد أدركا أنّ وسيلتهما الوحيدة للبقاء هي تقوية نفسهما نفسياً وجسدياً، وأنّ البقاء هو الغاية النّهائية حتّى لو بذلا في سبيلها أغلى التضحيات وأظهرا أشدّ أشكال القسوة، وآخرُها الفراقُ. قبلت منشورات سُوي نشر العمل وظهر سنة ١٩٨٦ حاصداً النجاحَ. ثمّ أتت روايتا **البرهان والكذبة الثالثة**، من غير تخطيط مسبق، لكي تحكيا على التوالي زمن الفراق وزمن التلاقي من جديد. الرواياتُ الثلاث (**الدّفتر الكبير**، **والبرهان**، **والكذبة الثالثة**) تشكّل جميعاً «الثلاثية» التي أضحت اليوم مترجمةً إلى كلّ اللّغات.

رواية **أمس**، المنشورة سنة ١٩٩٥، تعرض نفس الموضوعات المتشابكة: المنفى والكتابة، العائلة والفراق، العزلة والكذب. وبشكلٍ مكمّلٍ للثلاثية (التي جرت أحداثها كلّها في مدينة ك.) تدور حبكة **أمس** في «بلد استقبال»، حيث توبياس/ساندور، الشّخصية الرئيسة والسارد بضمير المتكلّم، يعيش حالةً من العجز عن الاندماج في بلد المنفى واستحالة العودة إلى بلاده. ومع

ذلك، على الرّغم من هذا الانسجام الموضوعاتي الذي يحكم مجمل أعمالها، فإنّ كلّ شيء يمضي في اتّجاه اعتبار أغوتا كريستوف كاتبةً غير قابلةٍ للتّصنيف؛ ذاك أنّ خصوصيات أعمالها، وكذا سيرتها، تسمح للنّقد بأن يجرّها في جميع الاتّجاهات، بحيث أنّ التحديدات، مهما بدت ممكنةً ظاهرياً، تظلّ قابلةً للنّقاش.

انفتاحات:

لا يمكن لأيّ مقاربة نقدية إذن أن توفي عمل أغوتا كريستوف حقّه، ما لم يأخذ النّاقد بالحسبان وضعيّتها اللغوية الخاصّة، وتحديداً كونها تكتب بلغةٍ ثانية. ونلاحظ في الغالب الأعمّ أنّ الدّراسات الأشدّ صرامةً من النّاحتين السياسية والسيكولوجية لا تعالج معالجةً عميقةً مسألة الكتابة بغير اللّغة الأم؛ بينما الدراسات المتخصّصة المكرّسة لهذه المسألة كثيراً ما تجانبُ موضوعات أشدّ رحابة، شأن الشّهادة، والمأزق المزدوج والجنون. على أنّه لا ينبغي كذلك السّقوط في قراءات «ممجِّدة للغة الفرنسية» في متن أغوتا كريستوف. ذاك أنّ الكتابة بالفرنسية لم تأتِ أغوتا كريستوف من ميلٍ إلى هذه اللّغة، كأنّما اصطفتها «وطناً متخيّلاً»؛ بل بالعكس، لقد عاشت المؤلّفة هذه التّجربة كإكراهٍ مضاعفٍ. ذاك أنّ أغوتا كريستوف قد

اختارت الفرنسية لغةً للكتابة، من دون حتّى أن تكون قد اختارت سويسرا (أو غيرها من المناطق الفرنكوفونية) مكاناً للعيش. من البيّن بنفسه أنّ كلمة «اختيار» ينبغي أن تستخدم في حالة أغوتا كريستوف بحذر: إذ بشكلٍ مكمّلٍ، يفرض مفهوم «الصدفة» نفسه بثقلٍ نظريّ معتبر.

بعض الأبحاث التي ظهرت مؤخّراً صارت تتوسّل بمفاهيم ما تزال في طور التشكّل، كمفهوم «**الكتابة المهاجرة**»، التي تشمل مفاهيم المنفى، والاجتثاث، وضياع الهوية، بل وحتّى ازدواجها، وهي كلّها مفاهيم حاضرةٌ في متن كريستوف، وأيضاً «سرد النّجاة» الذي يرجع إلى أعمال فرويد ولاكان وريكور لكي يجد في قصص النّاجين من مصائب التّاريخ المعاصرة «طرائق عامّة وبنياتٍ لتبنّي الواقع». إنّ قراءاتٍ بحسب هذه المقاربة، قراءات كتلك التي يقوم بها كلّ من كريستيان كيجل وكلودي غانيي، تعيد لكتابات كريستوف ثقلها السيكولوجي والسياسيّ الذي تهمله القراءات المفرطة في «الأدبية». على أنّ ما لم يُقَم به حتّى الآن هو محاولة توحيد أبعاد التحليل المختلفة (اللسانية، والسياسية، والسيكولوجية، والأدبية بحصر المعنى) في قراءة موضوعاتية بالمعنى الواسع للكلمة، قراءة تُسائل المتن عبر «مفاهيمه المنظمّة»، مع مقارنتها في نهاية المطاف ونظيرتها لدى كتّابٍ آخرين.

تملّكاتٌ:

وعلى الرّغم من كلّ الصّعوبات التي ذكرناها آنفاً، إلا أنّ ثمة محاولاتٍ لتملّك نصّ أغوتا. ذلك شأنُ الأدب السويسري الروماندي[1]، الذي يزعم انتماءَ عمل أغوتا كريستوف إليه. في كتاب روجر فرانسيون **تاريخ الأدب بسويسرا الرومانديّة**، يظهر اسم أغوتا كريستوف في الأقسام المخصّصة للمسرح، وللرّواية المعاصرة، ولـ«أدباء المنفى»؛ وفي القسم الأخير لا تُقحم الكاتبةُ ضمن جنيالوجيا أدبية سويسرية، وإنّما ترتبط بأسماء مؤلّفين آخرين ينحدرون من أصول أجنبية، مثل أنا كونيو، وبيير كاتز، وميشا سوفر، وأدريان باسكوالي، وميريي كوتل. وأشدّ تعقيداً من كلّ ما سبق علاقةُ أغوتا كريستوف بالأدب المجريّ، للسبب البديهي المتمثّل في أنّ المؤلّفة لم تكتب باللّغة المجرية إلا بعض قصائد الشّباب.

على أنّ العناية بأعمال كريستوف في بلدها الأمّ تظلّ قويةً، يشهد على ذلك من جهةٍ الاهتمام المتزايد بها ضمن نطاق النّقد الجامعي، ومن جهةٍ أخرى ضربٌ من «إعادة إنتاج النّص» عبر ممارسة الترجمة: حيث عملَ ورشُ الدراسات الفرنسية بجامعة بودابست على ترجمة بعض

---

(١) سويسرا النّاطقة بالفرنسية.

النّصوص من مجموعتها سيّان. كما أنّ نجاح كريستوف يتجلّى أيضاً في حقل تعليم اللغة الفرنسية. ذاك أنّ نصوصها تستخدم لأغراض ديداكتيكية (الاقتباس المسرحي خاصّة) وأيضاً للقراءة ضمن دروس الفرنسية كلغةٍ أجنبية. وإنّ أحادية اللغة التي كانت المؤلّفةُ محكومةً بها [على مستوى التأليف] هي أحد الأسباب الجوهرية في نجاح الثلاثية كنصّ مدرسيّ، خاصةً في سويسرا الروماندية، حيث تمّ إقرار رواية الدفتر الكبير في برنامج الباكالوريا.

إنّ محاولات التملّك الثلاث السّابقة تمثّل إجاباتٍ (من طرف الآداب الوطنية والمؤسسة المدرسية) على كون أعمال أغوتا كريستوف، من دون أن تدّعي أيّ «انتماء وطنيّ»، تساهم في عدّة حقول في آنٍ. وأن نأخذ بعين الاعتبار هذه الأجوبة الثلاثة، التي تفتح عديد الآفاق، من شأنه أن يخلق قراءات أكثر وضوحاً وشمولية، قراءات نحتاجها بالتّأكيد لإضاءة متنٍ ما يزال لديه الكثير ليخبرنا به.

الفهرس

هذا الكتاب

أينك يا ماتياس؟ لقد خسرتُ كلّ شيءٍ إذ تركتُك. حاولتُ من دونك. لعبتُ، سرقتُ، قتلتُ، أحببتُ. لكن لم يكن لأيّ شيءٍ من ذلك معنىً. من دونك كان اللعبُ بلا معنىً، والثورة بلا شرارةٍ، والحبُّ بلا طعمٍ. لم أكن طيلة عشرينَ سنةً إلا غياباً كئيباً.



ISBN 978-9922605609
9 789922 605609

الغلاف : سكينة صلوان